الموقف السادس

الواقعية فى علم مقالات الفرق الإسلامية

أولا : موقف هويدى من الفلسفة القرآنية

أكد الدكتور هويدى فى جميع مواقفه على أن علم مقالات الفرق من أهم علوم الفلسفة القرآنية، على اعتبار أن الفلسفة القرآنية هى الأصل الذى تفرعت عنه علوم الحكمة الإسلامية وعلى رأسها الأصلين: أصول الفقه، وأصول الدين. وكان موقفه متمثلاً فى دعوته إلى الاهتمام بالفلسفة القرآنية الخالصة من كل شائبة غربية أو يونانية، ولذا فهى تتميز عن الفلسفة الإسلامية المختلطة والمتأثرة إلى حد كبير بالفكر اليونانى.

ومن خلال ذلك حاول أستاذنا الدكتور هويدى توجيه الأنظار إلى أهمية علم المقالات كمدخل لفهم أبعاد الواقعية الإسلامية فى نقائها المصور فى الفلسفة القرآنية التى مصدرها القرآن والحديث وجهود علماء الكلام وفلاسفة الإسلام الذين قدموا آراء متميزة عن الفلسفة اليونانية،وكان يمثلهم فى المشرق العربى الكندى ت٢٥٥هـ والفارابى ت٣٣٩هـ ومسكويه ت ٤٢١هـ وابن سينا ت٤٢٨هـ والغزالى ت ٥٠٥هـ،وأصحاب المذاهب الكلامية من معتزلة وأشاعرة وشيعة وفقهاء السلف، كما كان يمثل هؤلاء بعض المفكرين البارزين فى شمال إفريقية مثل ابن حزم الأندلسى ت٤٥٦هـ، ومحمد بن تومرت الموحدى ت٥٢٤هـ، وابن باجة ت٥٣٥هـ، وابن طفيل ت٥٨٢هـ، وابن رشد ت٥٩٥هـ. ويرى هويدى أن البحث فى آراء هؤلاء الفلاسفة والمتكلمين هو السبيل الوحيد لسد النقص فى المعرفة بالواقع الحقيقى للفكر العربى،خاصة فى جناحه المغربي، وتحقيق ترابط حلقات الفكر وتصحيح سوء الفهم الذى أدى ببعض المستشرقين إلى اتهام العقل العربى بعدم القدرة على التفلسف، وأن آراء فلاسفة العرب وعلماء الكلام والمتصوفة لخير دليل على تميز الفلسفة القرآنية التى تتميز بخاصية الواقعية والتى عبرت عنها مواقف وآراء الفرق الكلامية وما قدموه من تحليلات منطقية مقبولة لتفسير العديد من المشكلات الحياتية والمصيرية والميتافيزيقية فى نفس الوقت، بالإضافة إلى الحلول التى قدمها فلاسفة

الإسلام وعلماءالكلام لمشكلةخلق العالم،والذات والصفات،والفاعلية،والقضاء والقدر، والكلام الإلهى وخلق القرآن، ومسائل التوحيد والنبوات وغيرها، وما قدمه ابن سينا وأبو البركات البغدادى من آراء وأدلة لإثبات جوهرية النفس وخلودها، وما قدمه أصحاب الفكر الصوفى المعبر عن فلسفة الإسلام السنى أمثال ابن العريف الصوفى، ومحى الدين بن عربى، والسيوطى وغيرهم.

وقد عرض هويدى لآراء هؤلاء ومواقفهم فى كتابه الهام: تاريخ فلسفة الإسلام فى الشمال الإفريقى، وكذلك محاضرات فى الفلسفة الإسلامية وكتابه: علم الكلام والفلسفة الإسلامية، حيث ظهرت أبعاد فلسفة هويدى الواقعية الإسلامية فى عرضه الأمين والعميق لأراء أهم الفرق الإسلامية مثل الخوارج والمعتزلة والشيعة والأشعرية والأباضية، وكيف عبرت آراء هذه الفرق عن روح الإسلام وما تتميز به الفلسفة القرآنية التى قدمها أصحاب الفرق والمذاهب من خصائص وآراء تتسم بالعمق عندما تعرضوا للتصورات الأنطولوجية لله وكيف اتخذوا من هذا التصور محوراً لفهم العلاقة بين الله والعالم، وتطبيقها فى الواقع العملى من خلال علاقة الفرد بالآخر والمجتمع الذى يعيش فيه.

ولهذا كان هويدى حريصاً على إبراز مدى الحاجة إلى الفلسفة القرآنية وما تقدمه من أفكار ومعارف ذات صبغة إنسانية وأخلاقية نحتاجها إذا أردنا الوصول إلى أعماق الواقع العربى أو التفاعل مع هذا الواقع وإدراك حقيقته، ولهذا أشار هويدى فى أكثر من موضع إلى فضل وأهمية علم الفرق والفلسفة القرآنية والمباحث التى عالجتها، وأن هذه الفلسفة التى يتألف منها علم مقالات الفرق الإسلامية، والتى هى سبيلنا الوحيد لتقديم النسق الفلسفى الذى نسعى إليه والذى يحتوى على العقيدة النظرية القابلة للتحقيق بالفعل والتى بدونها لا يحدث التغيير أو الإصلاح الحقيقى المطلوب فى مجتمعنا العربى.

لقد قدم هويدى علم مقالات الفرق فى صورة كلامية ونقدية،واعتبره مساويا لعلم الكلام فى غايته بوصفه علم الرد والحجاج ضد مزاعم المستشرقين وأتباعهم، وإثبات الحقائق الدينية ومعالجة القضايا المعرفية وكيفية الرد بالدليل العقلى والنقلى على العديد من المزاعم التى أثارها رجال الكلام والفلاسفة وكذلك المتصوفة اعتماداً على الحقائق والأدلة التى قدمها

القرآن وأيدتها السنة المطهرة. لذلك فإن هذه الفلسفة سوف تظهر علاقة التلازم والترابط بين الرسالة الحضارية للإسلام وبين ما يقدمه الفلاسفة من دراسات وآراء، ولهذا حدد هويدى الغرض المنشود من دعوته للفلسفة القرآنية بأنها دعوة حضارية ووسيلة لتأكيد الهوية ورفض كل محاولة للاغتراب عنها، وأن الغرض المنشود منها هو تمكين حب الحكمة فى قلوب المؤمنين بالفلسفة وتحريك اهتماماتهم الفكرية والثقافية والسياسية جميعاً، وأن السبيل الوحيد لتحقيق هذه الأهداف هو انفتاحنا على كل ما هو جديد فى عالمنا وعدم الانفصال عن الواقع ولو للحظة واحدة، وهذا ما يؤكده هويدى صراحة حين يقول: إنى أومن أن كل هذا متشابك أو متصل، وأنه ليس هناك علم يستطيع أن يقدم هذه النظرة الشمولية إلى الحياة سوى الفلسفة.[٦٩]

والفلسفة القرآنية فى شقها المغربى هى الفلسفة التى يراها أستاذنا فى كتابات ابن رشد وأبى البركات البغدادى بوصفهما أحد الفلاسفة الذين عبروا عن الفلسفة القرآنية خير تعبير، لأن كلاهما يميز بين العلم الإلهى من جهة والعلم الإنسانى من جهة أخرى، وأن الواقعية الإسلامية واضحة فى أقوال أبى البركات البغدادى وتحليلاته للعلاقة بين الإدراك والوجود وكيف أن دائرة الوجود تتعدى دائرة الإدراك حين يقول: إن الحال فى العلم القديم الموجود خلاف الحال فى العلم المحدث مع الموجود، وذلك أن وجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا كما أن العلم القديم هو علة وسبب للموجود. ورأى هويدى أن أقوال أبى البركات تعلى من قيمة المعرفة الكلية الشاملة فى صورتها الواقعية لأن الإدراك ليس شرطاً فى الوجود وإنما الوجود هو شرط الإدراك.[٧٠]

ولا شك أن هذا يدلنا على أن الواقعية الإسلامية أوالإيمانية عند هويدى تقوم أساساً على إثبات التوحيد والتنزيه لله ورفض النظرة التى تنظر إلى الإله بوصفه كائن حاصل على صفة الألوهية،كما رفض تصور ألكسندر للألوهية بوصفه الروح أو الذات المتحركة أو المحركة، كما رفض فى نفس الوقت إقامة أدلة وجود الله على مجرد فكرة العاطفة الدينية، وأكد أن إقامة

---

٦٩. محمد مجدى الجزيرى: الهموم الحضارية عندالدكتور يحيى هويدى. مجلة أوراق فلسفية، عدد يوليو- ديسمبر ٢٠٠١، ص١٠١،١٠٢

٧٠. محمد محمد مدين: الوضعية المنطقية رؤية واقعية. مجلة أوراق فلسفية، ٢٠٠١، ص٨٩،٩٤

الإيمان على مجرد العاطفة وحدها لا يكفى لتحقيق الإيمان الكامل أو التنزيه لله.[٧١]

ورأى هويدى أن علم مقالات الفرق الإسلامية يمكن أن يؤدى دوره فى قضية التوفيق بين الفلسفة والدين وكذلك الدفاع عن الدين ضد شبه المخالفين كما كان دور علم الكلام فى العصر الوسيط، على اعتبار أن الفلسفة والدين كلاهما يتناول الكون والإنسان بوصفها أشياء أو مخلوقات صادرة عن الخالق، وإثبات التمييز بين علم اللاهوت أو الربوبية الباحث فى العقائد الدينية وإثبات صحتها و تأييدها بالحجة والمنطق، وفى هذا يرى هويدى أن فلسفة الدين يمكن أن تتخطى علوم اللاهوت إلى البحث فى المفاهيم الكلية التى تستخدمها هذه العلوم ودراستها دراسة نقدية، لأن الفلسفة عنده هى منهج للنظر الكلى العام وليست مجرد محاولة للبحث عن العلل أو عن الحقائق، كما أن الفلسفة عنده ليست إلا منهجاً خاصاً من مناهج التفكير يلتزم فيه الإنسان النظرة الكلية إلى الوجود وعلاقة الإنسان به ويبعد عن النظرة الدارجة، ولا يقيد نفسه بميدان بحث خاص كما يفعل رجال العلم، ولا يبدأ من تصور معين للكون كما هوالحال عند رجال الدين.[٧٢]

ويؤكد هويدى على أهمية الفلسفة القرآنية ودورها الهام فى تحقيق التقارب بين الأديان وخاصة التصور الإلهى بين المسيحية والإسلام، ويرى أن أهم ما يميز إله الإسلام أنه إله بائن ومنزه ومفارق ومتعال، وعلى العكس فإن أهم ما يميز إله المسيحية أنه إله باطن وحاضر وقائم فى الكون والإنسان، وأن هذا التمييز لا يمنع من القول بأن الصورة التى قدمها الإسلام لله تقبل كذلك حضوراً ما لله فى الكون والإنسان ولكنه حضور ليس كحضور إله المسيحية، لأن إله المسيحية على الرغم من مباطنته للكون والإنسان فهو متعال أيضاً عليهما وبالتالى فإنه يمكن التقريب بين التصورين من هذه الناحية، مع صعوبة توحيد الفكرة أو التصور، لأن التصور المسيحى يعتمد على فكرة الحضور الزمانى والمكانى للإله، ولعل ذلك كما يقول هويدى علة الصعوبة فى التوحيد بين التصورين ويقول هيهات أن يمحى تماماً الفارق الأساسى بينهما، ويفسر هويدى تلك الصعوبة بقوله: إن الأشخاص والأشياء فى التصور المسيحى لله خاضعة خضوعاً مباشراً لتأثيره نظراً لحلوله فيها

---

٧١. يحيى هويدى: دراسات فى الفلسفة الحديثة والعاصرة. دار النهضة العربية، ١٩٦٨، ص١٧٢،١٧٣.

٧٢. يحيى هويدى: مقدمة فى الفلسفة العامة. النهضة المصرية ١٩٥٦ص٥٥-٥٧.

بصفة دائمة، أما فى الإسلام فعلى الرغم من أن الأمر كله بيد الله، إلا أن الإيمان بوجود الإله المتعالى على الكون، والإيمان بقضائه وقدره الذى يصيب الإنسان فى حياته، وينظم الله بحسبه نواميس الكون، فإنه لا يتعارض مطلقاً مع الحرية الكاملة للإرادة الإنسانية، وهذه نتيجة طبيعية لديانة تؤمن بوجود الله فى صورته المتعالية، البعيدة عن التأثير المباشر الدائم فى مملكة الإنسان.[٧٣]

ويقارن هويدى بين التصور المسيحى للألوهية الذى يبدأ بوضع الله فى الكون أو اللامتناهى فى المتناهى، أو اللاهوت فى الناسوت، وبين التصور الإسلامى الذى يجعل الله مقدساً ومنزهاً عن المماسة والاستقرار أو الحلول فى الزمان، وأن ظهور الله فى اللحظة يتمشى مع فكرة الإله المتعال فى الكون، أما ظهوره فى الزمان المتصل بالديمومة فيتمشى مع فكرة الإله الحال فى الكون والمباطن للمكان والمستقر فى العالم. وعلى ذلك فإن الواقعية الإسلامية بوصفها أحد الإتجاهات البارزة للفلسفة القرآنية والتى قدمها هويدى تعكس بصورة مباشرة وجهة النظر الإسلامية فى فهم مسائل الذات والصفات ومدى إمكانية التوفيق بين الفلسفة والدين ومسائل الإرادة والفاعلية والعلم الإلهى وغيرها، لأن الدين الإسلامى كما يقول هويدى هو دين المحافظة على المستويات سواء الإلهى والبشرى أو الوجود والماهية، ولأن مزج هذين المستويين لا يتمشى مع روح الإسلام.

كما تظهر أهمية وقيمة الواقعية الإسلامية فيما قدمه هويدى من خلال ما سماه بعلم مقالات الفرق الإسلامية، وتصوره للآراء والمذاهب التى قدمها علماء الكلام، وكيف تبنى علم مقالات الفرق الموقف السلفى والأشعرى الرافض للفلسفة اليونانية، والرافض فى نفس الوقت لكل ما هو غريب عن الفكر الإسلامى الصحيح بما فيه من آراء المتكلمين وبحوثهم الفلسفية والمنطقية،وأن هذا العلم أى علم مقالات الفرق الإسلامية، قد تمكن من كشف عيوب بعض المتكلمين ونوازعهم الخفية خاصة السياسية، وأن غاية هذا العلم المحددة هى العودة بعقيدة التوحيد الإسلامية إلى نقائها الأول خالية من كل دعوة وثنية أو مادية، ولهذا كان اعتماد علم المقالات على المعرفة المنطقية والعلمية المؤيدة بالدين، لأن الواقعية لا تعتمد على النقل

٧٣. المرجع السابق. ص١٠٤.

وحده بل تعتمد أيضاً على العقل ومقولاته التى تعين على تقديم البراهين المنطقية السليمة وإدراك الحقائق المؤيدة ببراهين يقينية.[٧٤]

ثانيا : موقف هويدى من المتكلمين

لقد حرص هويدى من خلال دراسته لقضايا علم الفرق ومقالات الإسلاميين على بيان دور الواقعية الإسلامية فى فهم حقائق الفكر الشيعى والخارجى وما تفرع عنهما من فرق ومذاهب، حيث تناول أهم آراء هذه الفرق وأسباب ظهورها والتسلسل التاريخى لنشأتها وموقفهم الكلامى من قضايا الإيمان والنبوة والإمامة، وفى جميع مواقفه أثبت هويدى أن النقد والتحليل الموضوعى هو أهم متطلبات الواقعية النقدية، لأن النقد لا يعنى الاتهام بل يعنى الوعى الدقيق الواضح بالحقائق والدفاع عن الحق، ومن ثم فإن النقد هو السعى لإثبات الحقائق والدفاع عنها بموضوعية ودون تحيز، وفى هذا الإطار جاء تعرض أستاذنا لنشأة فرق الشيعة ومنها فرقة الإسماعيلية حيث وقف بجانبها مدافعاً ضد اتهامات السنة والسلف لها مستدلاً بآراء الشيعة أنفسهم وما سجلوه من مواقف وآراء تبين حقيقة مذاهبهم وركائز معتقدهم.[٧٥]

ومع أن الدكتور هويدى قد دافع عن العديد من أفكار الإسماعيلية المعتدلة، والتصور الإسماعيلى لنظرية العقول، فقد اعترض على موقفهم عندما خلعوا على العقل الأول أو المبدع الأول بعض أسماء الله الحسنى ويقولون إنه الأول وهو الكلمة والعالم الأول والقدرة والحياة والقادر الأول وهكذا، وما ذكره فيلسوف المذهب الإسماعيلى وهو حميد الدين الكرمانى فى رسالته راحة العقل حين يقول: أن العقل الأول علة ومعلول، فهو معلول للمبدع المتعالى، وهو من خلقه ومن إبداعه، بل إنه لم يصدر عنه عن طريق الفيض بل عن طريق الإبداع، وفى هذا يقول هويدى أن هذا العقل كما يرى الإسماعيلية علة لانبثاق سائر الموجودات، ولهذا الاعتبار فإنه الموجود الأول المتقدم على كل شئ، وهو الكامل كمالاً تاماً لا يحتاج فى وجوده إلى غير ذاته، ويؤكد هويدى على أن هذا المزج بين مراتب الدعوة الإسماعيلية ومراتب الموجودات الخلقية، ومحاولة المقابلة أو المطابقة بينهما وخاصة

---

٧٤. عثمان أمين: رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده. دار المعارف القاهرة، ص٧٧،٨٧.

٧٥. يحيى هويدى: تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية. ج١، النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص٨٠-٨٢

عند مقابلة العقول العشرة بما يقابلها من مراتب الدعوة العشرة أو أركان الدين العشرة كما يسمونها وهى: الناطق، والأساس، والإمام، والباب، والحجة، وداعى البلاغ، والداعى المطلق، والداعى المحدود، والمأذون المطلق، والمأذون المحدود أو المكاسر. فإن هذه المراتب يقابلها أركان الدين العشرة وهى: التنزيل، والشريعة، والشهادة، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والطاعة.

ورغم تعاطف هويدى الفلسفى مع آراء فرقة الإسماعيلية فإنه عارض الكثير من آرائهم مثل اعتقادهم فى استمرار الوحى حتى الآن، وقولهم بأن الوحى لا ينقطع لأنه فيض من العقل الأول وهو الناطق على العقول المفارقة الأخرى، وكذلك قولهم فى الأئمة السبعة أو النطقاء، وأن انبعاث الموجودات كلها نتيجة لفعل هذه العقول المفارقة، كما اعترض على منهجهم فى توزيع أو إطلاق أسماء الله الحسنى على هذه العقول، وفى ذلك يقول هويدى صراحة: إن هذا الأمر لا يمكن أن نوافق الإسماعيلية عليه، بالرغم من كل المبررات التى ساقوها لإثبات أن أسماءه تعالى وضعت بهذا الشكل لتظل وقفاً عليه سبحانه، لأن فى هذا إشارة لأن يفهم البعض أن الغرض هو تأليه الأئمة وإضافة إليهم صفات الألوهية كالقدرة والتشريع والإطلاع على الغيب وغيرها.[٧٦]

وإذا تأملنا تفاصيل المقالات وجملة الآراء التى سجلها الدكتور هويدى فى مؤلفاته مثل : محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام، وتاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية، سنراه يعرض لملامح الفلسفة القرآنية التى ينتمى إليها علم مقالات الفرق الإسلامية، وأنه فى هذه المقالات كان دائماً مدافعاً عن الحق والحقيقة، ومؤكدا على فكرة الترابط والإتصال بين الفلسفة والدين، وبين الفلسفة والحياة، وبين الفلسفة والسياسة، وبين الفلسفة والمجتمع، ومطبقاً لمنهجه القائم على التحليل والمقارنة والنقد، كما رأيناه يقدم لنا تحليلاً وافياً لآراء الفرق الإسلامية ومبادئها وأهم رجالها، مثل تلك الآراء التى عرضها رجال الفقه الأباضى لبيان حقيقة المذهب ومدى تميزه عن باقى الفرق وفى مقدمتها المعتزلة والأشعرية وكذلك الخوارج، فكان هويدى مدافعاً عن الحقيقة والرأى الذى يتسم بالواقعية ويتفق فى

---

٧٦. يحيى هويدى: تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية. ج١، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص١٢٠-١٢٢.

جوهره مع حقيقة الفكر الإسلامى، كما تعرض هويدى أيضاً بالتحليل والنقد لمبادئ الفكر الشيعى وخاصة الفرق الشيعية الأكثر تأثيراً وانتشاراً، أعنى فرقتى الإسماعيلية والإثنا عشرية، حيث حرص هويدى على تحليل هذه الأصول والمبادئ وأوجه الشبه والخلاف وفق معيار الصدق والحقيقة، والتقييم الواقعى لمواقف الخصوم وردود أهل المذهب، عارضاً كل الحجج والبراهين والتهم،على معيار الواقعية الإسلامية ثم يأتى موقفه الواضح والصريح بعد التحليل والعرض والمقارنة مدافعاً عن الحقيقة كما رأيناه مدافعاً عن بعض مبادئ الشيعة والخوارج والأباضية وبعض التأويلات الباطنية البعيدة عن الشرك، وكان يقول صراحة أن الإسماعيلية فى الأصل يؤمنون بجميع التأويلات الظاهرة، كما يعتقدون أن مظاهر الحلال حلال وباطنه حلال، ومظاهر الحرام حرام وباطنه حرام، وأن هذا الاعتقاد وحده كفيل بأن يسقط عنهم الكثير من التهم التى وجهها لهم أهل السنة والغزالى فى كتابه فضائح الباطنية.

ولهذا كانت الرؤية الواقعية التى قدمها الدكتور هويدى فى فلسفته التى يسميها بالفلسفة القرآنية متمشية فى كثير من مواقفها مع آراء فلاسفة الإسلام الذين كانوا يمثلون التيار النقدى ابتداءً من نقد ابن ملكا للفلسفة اليونانية المشائية فى كتابه: المعتبر فى الحكمة والذى تناول فيه العديد من أبواب المنطق والطبيعيات والإلهيات بصورة واقعية، كما ينظر هويدى إلى رؤية ابن ملكا النقدية للتيار المشائى السينوى بوصفها رؤية معبرة عن الواقعية الإسلامية وأنه لم يكن مقلداً لأحد، وأن الكثير من الفلاسفة والمفكرين المتأخرين قد تأثروا بمنهجه مثل الفخر الرازى وابن تيمية وابن قيم الجوزية وعضد الدين الأيجى ونجم الدين الكاتبى وغيرهم، وهكذا يعلمنا أستاذنا المنهج فى النقد والتحليل القائم على الموضوعية والصدق كما يعلمنا كيفية الوصول إلى الحقيقة وكيف نعبر عنها فى شجاعة، كما علمنا من قبل أن الفلسفة هى المنهج، وهى الموقف من الحياة وأن مهمة الفيلسوف تعميق واقعه بالتحليل والمقارنة والفعل وليس بمجرد الفكر والنظر والتأمل.